مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد الثاني – المجلد الثالث
فبراير 2019 م
ISSN: 2522- 3380

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

أسلوب المنفلوطي في كتابه (النّظرات)

ويدراوغو إنوسا **ذو الأذهان بن عبد الحليم**

جامعة السّلطان زين العابدين || ماليزيا

الملخّص: الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي، كاتب اجتماعيّ إصلاحيّ، تعدّدت مقالاته وكثرت كتبه، والتقت صور جلّها في أشهَر كتاب له تناول فيه مختلف الموضوعات في نقد مختلف مجالات الحياة- وهو كتابه النّظرات- وقد كان أسلوبه في هذا الكتاب: أنه ارتكز على الحقيقة واستعان بالخيال وتميّز في التّصوير بأنّه دقيق اختيار النّعوت لمنعوتاتها، مسحب التّفصيل لأجزاء الوصف، مستعينًا خلال ذلك بالتّكنيات السّرديّة المعبّرة عن إحاطته الكاملة لدقائق الأحداث كـ"الرّؤية من خلف، أو الرّؤية الإلهيّة vision par derriere "، و"الرّؤية مع vision avec"، ومعتمدًا في التّأثير على اختيار الجنس الأنثوي في التّعبير عن القصص المأساويّة، مائلاً في ذلك إلى التّشاؤميّة والنّظرة الاستنكاريّة تجاه الوقائع الاجتماعيّة المؤلمة، ومستخدمًا خلال مختلف القصص خلفيّته التّاريخيّة الواسعة، مؤسّسًا للقارئ مبدأ القناعة واحترام الذّات، ومخاطبًا في جلّ خطاباته الإصلاحيّة نفوس المعنيّين من البشر، إيمانًا منه بأنّ لها طبائع أصليّة مجبولة بالخير لا يتعدّاها المرء إلاّ عندما يعلن الحرب على نفسه بنفسه، وتأتي هذه الدّراسة لتناولِ وصف هذا الأسلوب حسبما تراءى للباحث خلال مختلف قصص الكتاب ومقالاته، منتهجة في ذلك منهج وصف الموضوعات باختصار أفكارها وتصنيفها حسب السّياقات المناسبة لها.

الكلمات المفتاحيّة: المنفلوطي، كتاب النّظرات، القصص والمقالات، الأسلوب، الوصف، الحقيقة، الخيال.

مقدمة:

كتب المنفلوطي في حياته كثيرًا من المؤلّفات الأدبيّة، ذكر معظم الكتب سبعة منها، وهي: (النّظرات) وهو ثلاثة أجزاء جمع فيها ما نشره في المؤيّد من الفصول في النّقد والاجتماع والوصف والقصص، وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة، و(مختارات المنفلوطي من أشعار المتقدّمين ومقالاتهم)، وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسيّة (sous les tilleuls تحت ظلال الزّيفون أو ماجدولين) ل Alphonse karr ألفونس كار، و(paul et verginie بول وفرجيني أو الفضيلة)، ل Henri Bernadin de saint pierre بيرنردين دي سان بيير، و(سيرانودي برجراك أو الشّاعر) ل Edmon Rostand إدمون رُستان، و(pour la couronne في سبيل التّاج) ل Francoi coppee فرانسوا كوبيه، فصاغها بأسلوبه البليغ الرّصين، صياغة حرّة لم يتقيّد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي، ثروة.

وقد انتهج الكاتب في كلّ هذه الكتب منهج إصلاح الاعوجاج الاجتماعي؛ وهو بذلك سائر على درب المدارس البراغماتيّة (النّفعيّة)؛ إذ كان كثير من مؤلّفاته تعالج موضوعات اجتماعيّة مختلفة اختلاف المعنيّين بها؛ فالعبرات عبارة عن رثاء لحال الفقراء والمنكوبين ومشاطرتهم في معاناتهم، وعلى ذلك المعنى يقول في إهدائه: "الأشقياء في الدّنيا كثير، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئًا من بؤسهم وشقائهم، فلا أقلّ من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات، علّهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى "[(1)]

وفي كتاب الحجاب يدافع المنفلوطيّ عن الحجاب بتشخيص في منتهى الرّوعة؛ حيث اعتبر التّبرّج والسّفور ثقافة الغرب الّتي ابتلي بها من سكن عندهم من العرب، فجعل عاقبة من صمّم على إثبات هذه الثّقافة في بلاد العرب اعترافًا وحسرة لما أحدثوه في البلاد من الفساد بنقلهم تلك الثّقافة إلى مواطن غير مواطنها- وهو المعنى الّذي

(1)- ينظر مصطفي لطفي المنفلوطي، العبرات، د ط، دار الهدى الوطنيّة، بيروت، د. ت، ص1- 25.

عبّر عنه المنفلوطي بغرس أشجار في تربة لا تناسبها- ذلك الفساد الّذي بدأ ببيوتهم قبل بيوت غيرهم فجعل أصدقاءهم يتناوبون على نسائهم فأحدث ذلك كوارث عندهم باختلاط الأنساب، وانزهاق الأرواح جرّاء كثرة العار والأحزان[2].

وفي النّظرات مجموعة من مثل هذه التّشخيصات كالغنيّ والفقير، واللّقيطة، والفضيلة، وغيرها.

وبالجملة فإنّ كتابات المنفلوطي كلّها كانت عبارة عن صراعات ضدّ الوقائع البشريّة والاجتماعيّة المؤلمة بجميع أنواعها كالظّلم والاستبداد، وعدم رحمة الفقراء والمساكين والضّعفاء من النّساء والأطفال وجميع المنكوبين، وكالادّعاءات والجهل والتّقليدات العمياء، وغياب الحقّ والعدالة والشّهامة في المعاملات وغيرها من القضايا الاجتماعيّة الّتي لا يقدر كلّ إنسان على تصويرها وتشخيصها وتحليلها.

وقد تميّز من بين كتب المنفلوطي المذكورة وصار له شأنًا أعظم من غيره: كتابه النّظرات، فلو حاول باحث للوصول إلى أسمى أعمال المنفلوطيّ وأميزه في الكتب المختلفة والدّراسات المصغّرة؛ لا يكاد يجد إشارة أي كاتب أو باحث إلى أعمال المنفلوطيّ تخلو من هذا الكتاب، وكتابه العبرات؛ فإليه أشار الشّيخ أحمد حسن الزّيّات –في ثنايا حديثه عن أدب المنفلوطيّ ومؤلّفاته، ومنه اقتبس نموذجًا من كتاباته ليكون مرآة تعكس كلّ أفكاره وأساليبه وميوله، وهو (الغنيّ والفقير).

وإلى هذا الكتاب كذلك أشار صاحب كتاب (مؤلّفات المنفلوطيّ)، قبل غيره عند ذكر مؤلّفاته .

وإذا وقفت على الأبحاث المختلفة المنشورة حول المنفلوطيّ، وأسلوبه تجد نفس الاهتمام بهذا الكتاب في استدلالاتهم، وعليه اعتمد العقّاد لترجمته الهزليّة للمنفلوطيّ، قبل أن يشير إلى أخطائه اللّغويّة في كتابه العبرات.[3]

كلّ هذه إن دلّت على شيء فإنّها تدلّ على أنّ هذا الكتاب من أهمّ كتب المنفلوطيّ وأبرزها، ولم يبرز بكثرة مجاملين ولا مدائح المادحين بقدر بروزه لاحتوائه على أحسن كتابات في العصر الحديث في السّاحة النّثريّة، قصصًا وروايات، وأقاصيص مختلفة.

ونظرًا لما لاح للباحث من جماليّات الأساليب المستخدمة في هذا الكتاب، فإنّ أقلّ واجب يناط به للمشاركة على التّنبيه إلى أهمّيّة الاستفادة من مثله، أن يقدّم هذه الوريقات المودّعة في طيّاتها أهمّ الوقفات المنيرة على هذه الأساليب الفريدة، مستخدمًا خلال ذلك المنهج الوصفي والتّحليلي، بادئًا بتقديم، تتبعه خمسة محاور، مشفوعة بخلاصة تجمع جميع النّتائج المحصول عليها خلال الأجزاء المدروسة المتكاملة في هذا البحث.

هذا، وقد وقف الباحث على منشورات مصغّرة وبعض بحوث جامعيّة تناولت كتابات المنفلوطي بالوصف والتّوضيح، غير أنّ الموضوع المعنيّ هنا في هذا البحث بالذّات، يظهر للباحث أنه لم يجد حظّ عنايته كاملا كما يستحقّ من هذه البحوث والدّراسات، لأسباب سوف تذكر باختصار في ثنايا عرضها، ومن هذه البحوث:

1. الاتّجاه الإنساني في أدب المنفلوطي، لسميرة عدلي محمّد رزق، بحث ماجيستير، جامعة أمّ القرى عام 1983م:

وصفت الباحثة بنفسها عملها في هذا البحث في عبارات تكفي شاهدة على تقسيمها وأسلوبها؛ فقد بيّنت أنّها قسّمت هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة أبواب، تناولت في التّمهيد الحياة الاجتماعيّة في عصر المنفلوطي باعتبارها صورة عاكسة على أدبه، أمّا الباب الأوّل فقد تحدّثت فيه عن مولد المنفلوطي ونسبه، ونشأته، ووفاته، وعن أساتذته الّذين تتلمذ على أيديهم وحازوا بفضل رعايته وتوجيهه، ثمّ بيّنت وصف ظروفه الخاصّة الّتي كان لها دور توجيهه اتّجاهه الأدبي، من التّعاطف مع المزروئين من الفقراء والبائسين، كما ذكرت في هذا الباب أخلاق المنفلوطي الرّفيعة

(2)- ينظر مصطفى لطفي، *الحجاب*، ط1، دار الهداية، بيروت، 1991.

(3)- ينظر عبّاس محمود العقّاد إبراهيم المازني، الدّيوان، *في الأدب والنّقد*، ط4، دار الشّعب، القاهرة، 1996، ص80- 103

وعاطفته السّليمة والّتي قامت عليها أعماله الواعظة المشفقة، وذكرت أنّه إنّما كانت تلك الظّاهرة عنده وأدبه لتأصّلهما بالقرآن الكريم والسّنّة النّبويّة- نبراسي الإسلام وتربيته.

وأمّا الباب الثّاني من عمل الباحثة، فقد تناولت فيه أدب المنفلوطي(شعرًا ونثرًا)، ومهّدت قبل ذلك بتقديم صورة عن أدب عصره الّذي كان يهوي إلى السّقوط والضّياع خاليًا من المعاني المفيدة والأهداف النّبيلة، متقيّدًا بالصّنعة اللّفظية والبديع الفارغ، وبيّنت الباحثة أنّ كلّ هذه الظّواهر وغيرها كانت من آثار العصر العثماني.

وأعقبت الباحثة هذه بذكر كتب المنفلوطيّ –المؤلّفة الأصيلة منها و المترجمة- ثمّ بيّنت أسلوب المنفلوطي بعد هذا العرض وخصائصه التّعبيريّة، ومواقف العلماء منه ونقدها على هذه المواقف، ورأيها في الكاتب.

وفي الباب الثّالث تنتقل الباحثة إلى بيان المظاهر الإنسانية في عمل المنفلوطي- وهو جوهر بحثها- فحصرت هذه المظاهر في خمسة أشياء، وهي:

1- مقالاته الاجتماعيّة.
2- عطفه على البائسين.
3- إنصافه للمظلومين.
4- حملته على الأغنياء وطبقة الحكّام.
5- دعوته إلى التّمسّك بأهداب الفضيلة.

ثمّ ختمت عملها بخاتمة جامعة لكّل ما توصّلت إليها من نتائج، وما نثرت خلال البحث من أفكار مهمّة، مذيّلة بحثها بمقترحات للباحثين بعدها.

وقد بيّنت الباحثة مدى الصّعوبات الّتي واجهتها في سبيل إنجاز هذا البحث، وكلّها تنصبّ في فلك المراجع وندرتها، ممّا كلّفتها سفريّات كثيرة إلى بلاد مصر استغرقت منها سنوات ثلاثة كاملة، مع تعذّر وصولها في نهاية كلّ ذلك إلى بعض أعماله الّتي كانت تنشر في المجلاّت والدّوريات لبعد زمانها.

ومع تلهّف الباحث الكثير إلى البحوث المتعلّقة بأعمال هذا الكاتب للاستفادة منها، والانطلاق من ضوئها فيما اختار الوقوف عليه من أعماله، إلاّ أنّه بقي لا يصل إلاّ إلى الأبحاث المصغّرة الّتي لا توقفه على دقائق الموصوف، حتّى طلع له عنوان هذا البحث- الاتّجاه الإنساني في أدب المنفلوطي، فسعى وراءه حثيثًا بكلّ الأساليب ولكن دون جدوى، لذلك فإنّ الباحث هنا اكتفى بما نشرته صاحبة البحث عن بحثها وصفًا وتقسيمًا، ولم يستفد منه إلاّ ذلك الوصف.

وإذا أعدت النّظر في هذا الوصف تجد أنّ هذا البحث وإن كان فريدًا في مجاله إلاّ أنّه لم يخصّص كتابا أو عملاً واحدًا من أعمال المنفلوطي، وإنّما شملت دراستها كلّ أعماله وذلك ما يستحيل عليها دقّتها وتفصيلها؛ إذا انطوى كلّها في صفحات لا تتجاوز مائتين، هذا إلى جانب كونها تتناول من هذه الأعمال ما تمسّ الجانب الخلقي والإنساني وذلك ما لم يُعن به –خاصّة- في هذا البحث الّذي بين أيدينا.

2. المنفلوطي إمام النّثر على يده تطوّر الأدب العربيّ، لصلاح حسن، جريدة الحياة،27 أكتوبر 2014م: تناول هذا الكاتب شيئًا عن المنفلوطي ومكانة كتاباته من بين أعمال الكتّاب في العصر الحديث مؤكّدًا بأنّ النّثر وجد روحه بعد فقدها وحيويته بعد جمودها مع الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي، فإنّه رزق بمهارة الاستفادة من السّابق والحاضر، وخلق بينهما جديدًا يناسب الجيل الّذي عايشه، كما أشار إلى شيء من نشأته الأدبيّة؛ حيث ذكر شاعريّته الّتي بدأ بها وانتهى بالكتابة إمامًا مجدّدًا ومؤسّسًا، ناقلاً النّثر نقلاً هيّج معظم الشّباب في الشّام ومصر والعراق إلى أن ينجرّوا وراءه ويثوروا ثورته، كما ذكر قصّة هجائه للخدّيوي الّذي سبّب سجنه، مردفًا ذلك بأقوال العلماء عليه من محبّيه وخصومه، ذكر منها إنصاف بعضهم فيه مضطرّين مع أنّهم خصومه فذكر العقّاد، والمازيني، وطه حسين، وغيرهم.

ثمّ احتجّ للمنفلوطي ردًّا على بعض خصومه في مؤاخذاتهم عليه أخطاءه اللّغويّة، بأنّه كان يؤسّس مدرسة في الكتابة هو أوّل كاتب على وتيرتها، فلا يمكن أن تستقيم كلّ شيء بيده، ومبيّنًا أنّ هذه البداية أثمرت بعدها الكثير، فلم ينشأ من نشأ بعده من الكتّاب إلاّ معتمدين عليه وسائرين على منواله، وختم الباحث في هذا البحث بذكر وفاة المنفلوطي وظروفها، كما ذكر مؤلّفاته الّتي خلّفها المترجمة منها والأصيلة.

وهذه الدّراسة مع أهمّيّتها فإنّها تبدو واضحة أنّها أتت مشيدة لفضل الكاتب ورواج أدبه وذيوع صيته في زمنه وما بعده، ولا تتدخّل عميقة في أعماله واستنتاج ما فيها ممّا يؤكّد أوصافه، إلى جانب كون هذه الدّراسة- وإن كانت هي أفضل ما وقفت عليه من الدّراسات في المنفلوطي- مختصرة جدًّا لا تخدم كثيرًا من يريد الوقوف على تفاصيل الأجزاء الواردة فيها، ولا يخفى عموم موضوعها؛ فهي لا تكفي من يحاول الوقوف على جانب دقيق من أعمال الكاتب.

3. أسلوب المنفلوطي في النّظرات، مدوّنة مسعود عمشوش، 25فبراير- 2012م: ذكر الباحث عن المنفلوطي وكتاباته في مطلع حديثه مؤكّدًا أنّ أسلوبه لم يبق أحد من الكتّاب في السّابق أو الآن إلاّ تأثر به سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كما أشار بعد ذلك إلى نقاط ثلاثة يعتبرها جملة لوصف أسلوب المنفلوطي في كتابه النّظرات، فأولها حسن صياغاته وجمال الإيقاع والتّرسّل والبعد عن التّعقيد والتّكلّف في المحسّنات اللّفظيّة، وثانيتها فصاحته ونقاؤه وجزالة كلماته وابتعاده عن الكلمات العامّية والأجنبيّة، والثّالثة تكراره وإطنابه بأساليب مختلفة .

كما أشار الكاتب إلى أنّ موضوعات الكتاب جاءت كلّها معالجة لقضايا اجتماعيّة والبكاء على الأهوال ورثاء الفقراء والمنكوبين، ثمّ أورد نموذجين من موضوعات الكتاب للاستدلال على ما سبق من وصفه؛ فذكر: "الكوخ والقصر"، وكذلك: "أيّها المحزون ".

وهذه الدّراسة وإن كانت تظهر في عنوانها مطابقة تمامًا لما اختاره الباحث؛ إلاّ أنّها لم تتناول عن كتاب الأديب أكثر من الجانب المذكور في سطور يسيرة جدًّا، تبدو أنّها مجرّد مراسلات حصلت بين مجموعة من نشطاء ذلك الموقع، تتضمّن إجابات يسيرة توضيحيّة لمن يحتاج إليها في تلك اللّحظات، لا تستحقّ في الحقيقة أن تحمل هذا العنوان الكبير.

مشكلة البحث:

يلهف الكثيرون من الباحثين ومتكلّمي اللّغة العربيّة إلى أساليب جميلة ورفيعة في التّعبير عن أغراضهم، غير أنّ ابتعاد الأغلبيّة منهم عن كتب العرب وتراثها العظيم في ذلك، يُبقي كثيرًا من محاولات بعضهم تكبو دون الهدف المقصود، وإذا كان العصر يعجّ بتناقضاته الكثيرة ممّا تبقي المحاول دائمًا يتحيّر بين أن يأخذ من هنا أو هناك، وتبقَى بين التّراث القديم وأساليب العصر حواجز زمنيّة تصبغ كلّ فترة وأهلها بما تألف من الألفاظ وأساليب الكلام، فإنّ الحاجة تدعو حثيثة إلى وقوف الباحث والدّارس العربي على أفضل نماذج من كتابات العصور المتأخرة، تقدر على معايشة الحاضر بمتجدّداته، واستحضار ما يلهف إليه المعاصر لسداد الثّغرات الّتي غاب عنها أصول لغته في أزمانه السّاحقة، وإذا كان من النّماذج الموجودة في ذلك ما يستحقّ العناية بها من معظم طوائف المجتمع العربي، فتلك الّتي للكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي تتبوّأ مكانة مهمّة في ذلك لا يجوز التّغافل عنها، عليه فإنّ هذا البحث يأتي لفتًا للأنظار إلى أهمّية أعمال هذا الكاتب والاستفادة من أساليبه فيها، للعصر الحاضر- خاصّة ما أودع منها في كتابه النّظرات من قصص ومقالات عربيّة أو مترجمة- لتمثّلها مركز كتابات النّثر في زمنه وما بعده.

المحور الأوّل/ المنفلوطي، التّعريف به ونشأته، وبيان منزلته

1. التّعريف به ونشأته

هو مصطفى لطفي بن محمّد لطفي بن حسن لطفي المنفلوطي، ولد بمنفلوط من أعمال مديريّة اسيوط سنة: 1293ه الموافق 1876م، ونشأ في بيت كريم بالدّين جليل بالفقه، توارث أهله قضاء الشّريعة ونقابة الصّوفيّة، قرابة مائتي سنة، ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثّقافة فحفظ القرآن في المكتب، وتلقّى العلم في الأزهر، لكنّه مع كلّ ذلك لم يكن يهتمّ بشيء في حياته اهتمامه بالعلوم اللّسانية والفنون الأدبيّة، وقد كان في ذلك مخالفًا لما أحبّه له أبوه، ولذلك كانت بدايات تجاربه في الكتابة تتمّ في خفية جدًّا ويصوّر حاله بنفسه على ذلك في مقدّمة كتابه النّظرات يقول: "..فكان الّذين يتولّون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى، ونزغات الصّبوة؛ ضنًّا بي- يزعمون- أن أنفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها؛ فكنت لا أستطيع أن ألمّ بكتابي إلاّ في السّاعة الّتي آمن فيها على نفسي أن يلمّوا بأمري، وقليلاً ماكنت أجدها، وكثيرًا ما يهجمونني على ما لا يحبّون، فإذا عثروا في حقيبتي، أو تحت وسادتي، أو بين لفائف ثوبي، على ديوان شعرٍ أو كتاب أدبٍ خُيّل إليهم أنّهم قد ظفروا بالدّينار في حقيبة السّارق أو الزّجاجة في جيب الغلام، أو العشيق في خدر الفتاة، فأجد من البلاء بهم، والغصص بمكانهم، ما لا يحتمل مثله مثلي، وهم لا يعلمون –أحسن اللّه إليهم- أنّهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب، الّذي ينقمونها؛ ويد من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري... "[4]وقد كان المنفلوطي يحفظ الأشعار ويتصيّد الشّوارد، ويصوغ القريض وينشئ الرّسائل، حتّى أصبح مشهورًا في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب وبذلك نال رعاية الأستاذ محمّد عبده الّذي رسم له أمثل الطّرق في الكتابة ليرتقي لذلك إلى أسمى مستوى في الأدب والحياة؛ إذ استفاد من قربه بالإمام بعلاقة مع سعد باشا زغلول، ومن ذلك تعلّق بصاحب "المؤيّد"، وهؤلاء الثّلاثة كانوا هم أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي بعد استعداد فطرته وإرشاد والده.

وقد نسب إليه أثناء طلبه في الأزهر بأنّه هجا الخدّيوي عبّاس فحكم عليه بالحبس مدّة العقوبة، ثمّ لمّا توفي الإمام محمّد عبده جزع المنفلوطي على رجائه وسنده، وارتدّ إلى بلده مقطوع الرّجاء، ولمّا صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف عيّنه محرّرًا عربيًّا لها، ولمّا تحوّل إلى وزارة العدل حوّله معه وولّاه مثل هذا المنصب، ثمّ انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتّى إذا قام البرلمان عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابيّة بمجلس النّوّاب ظلّ فيها حتّى توفي وهو في العقد الخامس من عمره.

2. أخلاقه ومنزلته

وكان المنفلوطي في أخلاقه قطعة موسيقيّة في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق متلائم الذّوق متناسق الفكر، متّسق الأسلوب، منسجم الزّيّ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقريّة، ولانشوز الفدامة، كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحسّ في سكون، هبوب اللّسان في تحفّظ، وهذه الخلال تظهر صاحبها للنّاس في مظهر الغبيّ الجاهل، فهو لذلك كان يتّقي المجالس، ويتجنّب الجدل ويكره الخطابة، وإلى جانب ذلك فهو رقيق القلب عفّ الضّمير سليم الصّدر، صحيح العقيدة، نفاح اليد، موزّع العقل والفهم والهوى، بين أسرته ووطنيّته، وإنسانيّته[5].

(4)- مصطفى لطفي المنفلوطي، *النّظرات*، د، ط، دار مصر،192، ص 10

(5)- أحمد حسن الزّيّات، تاريخ الأدب العربي، ط2، دار النّهضة، القاهرة، د، ت، ص460-

وقد كان للمنفلوطي شهرة فائقة أكسبتها إيّاه طاقته البيانيّة وأسلوبه الحرّ، وأوصلته إلى ما أوصلته إليه من المناصب الكتابيّة والمكانات السّياسيّة المختلفة، فقد أثّر الرّجل بكتابه الأجيال المختلفة شبابًا وشيوخًا حتّى غدت مناهج تعليم في مختلف البلاد العربيّة، الأمر الّذي يبعث العقّاد وإن كان من خصومه إلى أن يطلق على عصره بالعصر المنفلوطي، إلاّ أنّ العقّاد وزميله المازني والأستاذ طه حسين لم يتركوا المنفلوطي في حرّيته وعاطفيّته العميقة ومعانيه المكرّرة في ألفاظ متنوّعة؛ فقد وصفوا أدبه بالعنوثة والبكاء والادّعاء والانتحال وقلّة المادّة وكثرة اللّحن، كما يرميه طه حسين بأنّه "يقضي ساعات اللّيل ومعظم النّهار بين قلب يجفّ، ودمع يكفّ، وجسم يرتجف، شهيق، وحريق، زفير وسعير[6]"، أمّا المازني فهو يرى قرّاءه مرضى في نفوسهم وأذواقهم لأنّ أدبه ادّعاء وتقليد ويضيف: "لكن لكلّ كاتب قرّاء على شاكلته منسوجين على منواله[7]" كما يصف أدبه في ميزان نقده بأدب الضّعف، والأمثل الّذي يدعو إليه هو أدب القوّة، والعقّاد لا يرى المنفلوطي إلاّ منشئًا لا كاتبًا وأدبه ليس إلاّ صنعة لا طبع فيه.[8]

المحور الثّاني/ كتاب النّظرات تأليفه وميزته وحدود موضوعاته.

1- تأليف الكتاب وبيان ميزته:

حسب اطّلاع الباحث، ليس هناك مؤلّفات ولا دراسات تشير إلى سبب تأليف كتاب النّظرات، بل ذهبت جلّها تؤكّد بأنّه إنّما كانت مجموعة من مقالات وقصص كان ينشرها الكاتب في المجلاّت والصّحف خاصّة في مجلّة "المؤيّد"، إلاّ أنّه من الإمكان، التماس هذا السّبب ولو من طرف خفي مّن الكتاب نفسه، حيث قدّم له المؤلّف بمقدّمة تحتوي على سيرة ذاتية عن شخصيّته الأدبيّة، يصل إلى ذلك من يقف على وصفه المتكامل للعمليّة الأدبيّة النّاجحة؛ حيث أرجع كلّ أسباب النّجاح في العمل الأدبيّ إلى مطابقته بالحقيقة المشعور بها والمعبّرة عنها؛ حزنًا وفرحًا، وحبًّا وكراهة، مدحًا ورثاءً وغزلاً وذمًّا، وفخرًا وهجاءً، وعدم التّكلّف بصنعة الألفاظ والتّقليد في التّركيب، وقد مهّد لكلّ هذه بكلام يُفهم من خلاله أنّه الدّافع إلى تأليف هذا الكتاب، وإن كان هذا العمل الشّعوري لا يحُدّ في أسباب معيّنة، لكثرتها واختلاف ظروفها، إلاّ أنّه لا ينطلق أيضًا من دون سبب أوّليّ؛ ذلك السّبب الّذي يتآلف مع ما بعده لرسم الطّريقة المثلى للكتابة الأمثل؛ إذ أجاب الكاتب عن تساؤلات بعض النّاس حول كيفية كتابته لقصصه ورواياته، ونجاحه فيها، يقول: "يسألني كثير من النّاس –كشأنهم في سؤال الكتّاب والشّعراء- كيف أكتب رسائلي؛ كأنّما يريدون أن يعرفوا الطّريق الّتي أسلكها إليها فيسلكوها معي، وخير لهم ألاّ يفعلوا؛ فإنّي لا أحبّ لهم ولا لأحد من الشّادين في الأدب أن يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتّاب غيري... "[9].

وإلى جانب هذا السّبب اللّطيف في تأليف هذا الكتاب فإنّنا نستطيع الإدراج من الأسباب كذلك: السّبب الطّبعي الّذي دعا إلى اهتمامه فيه وفي كثير من كتبه بموضوعات متقاربة في النّتائج المنشودة وراءها، وهو السّعي إلى تحقيق التّوازن الاجتماعي والإصلاح الإنساني، والحرص على إظهار الحقيقة، وتحقيق الفضيلة، ونبذ الرّذيلة، والدّعوة إلى مطابقة الأدب للواقع المعيشيّ، وهو المصرّح به أيضًا بعد هذا الكلام في كثير من تعبيراته الّتي فيها ذكر انتقاله من مرحلته الأولى من تجربته الكتابيّة؛ حيث كان يحبّ دموع الباكين والمنكوبين استئناسًا بها وتوسّلا بوساطتها إلى معايشة الحقيقة، إلى مرحلة الرّشد الّتي ظهرت له أسباب تلك الأحزان والبكاء والعناء الكثير في حياة

(6)- صلاح حسن رشيد، جريدة الحياة، 26 أكتوبر، 2014، السّاعة 19- 11

(7)- المرجع السّابق.

(8)- شكيب أرسلان، مناهل الأدب العربي، ط1، الدّار التّقدّميّة، لبنان، 2008، ص 9

(9)- مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د.ط. دار مصر.1925، 1/1

الضّعفاء وغيرهم؛ فهو قد أدرك في كبره حقيقة العالم الّذي يعج بالأضداد والمعاكسات؛ فقد نظر الكاتب إلى هذا العالم، نظر الغريب الحائر الّذي يصل إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه؛ لمّا رأى هذا الغموض الّذي تغبرّ به سماؤه وتتظلم به أجواؤه، فالنّاس فيه يتقاتلون في الذّرّة والحبّة، وتحكم فيهم القوّة لا الحقّ، والجهل لا العلم، وتقفرّ قلوبهم عن الرّحمة، وتجمد عيونهم عن البكاء، وتبعد قلوبهم عن وجوههم مسافة بعيدة، حتّى أصبح التّرائي للرّذيلة فضيلة، والظّهور بالفضيلة رذيلة، فأصبحت المقاييس مقلوبة فنابت عن الرّجل المرأة، وناب عن المرأة الرّجل، ولبس كلّ لباس غيره، وتسمّى بأسماء غيره، حتّى أطلق على الشّحّ اقتصادًا، وعلى الكرم إسرافًا والحلم جبنًا، والسّماجة جرأة، والسّفاهة براءة، والفجور فتوّة، والتّبذّل حرّيّةً، وأُطلق اسم الأديب على كلّ من لا يفي بالشّرط، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغًا مهذّبًا ، ومن يملأ صدره موجدة وحقدًا ثمّ يتكلّف بالابتسامة والضّحك بالسّن، ومن يسرق وهو قادر على العبث بمواد القانون... إلخ.

قال الكاتب: "فداخلني من ذلك همّ عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه، كأنّما خيّل إليّ- لقرب عهدي بما أرى- أنّني أرى شيئًا عجيبًا، أو منظرًا غريبًا... فأرسلت الكلمة إثر الكلمة، كما يتنفّس المتنفّس أو يئنّ الحزين، فرأى ذلك بعض النّاس فسمّوا ما رأوه كلامًا، ثمّ ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرّونني بأمثاله، وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما في نفوسهم حتّى رأيتني كاتبًا"[(10)].

2- حدود موضوعات الكتاب:

يحتوي كتاب النّظرات على 749 صفحة –بطبعة مكتبة مصر- مقسّمة بين أجزاء ثلاثة يحتوي الجزء الأوّل منها على 255 صفحة، والجزء الثّاني على 264 صفحة، أمّا الجزء الأخير فقد احتوى على 230 صفحة وهي أقلّ الأجزاء الثّلاثة حجمًا، وقد نثر الكاتب في خلال هذه الأجزاء الثّلاثة كثيرًا من الموضوعات؛ ففي الجزء الأوّل تجده قد تناول خمسين موضوعًا، وفي الجزء الثّاني تناول ثمانية وأربعين موضوعًا، وفي الجزء الأخير تناول خمسة وثلاثين موضوعًا، وقد بدأ الجزء الأوّل بالمقدّمة الّتي بيّن خلالها ميوله وطريقته في الكتابة إجابة عن سؤال السّائلين له؛ فأشار إلى أهمّية الطّبعيّة والصّدق في الكتابة كما بيّن وصف بدايات كتاباته وكيف كان يخبّئ قراطيسه في محفظته وتحت وسادته خوفًا من مؤاخذة والده ومن كان على دربه من شيوخ مسجدهم، كما ساق في ثنايا إجابته عن سؤال السّائلين أمثلة من الكتابات الّتي وافقت ما يتبنّاه، والكتابات الّتي خالفت ذلك من أعمال الأدباء السّابقين له، ثمّ بدأ الموضوع الأوّل من هذا الجزء وهو "الغد"[(11)]؛ حيث تكلّم عن القدر خصوصًا في مستقبل الإنسان فأكّد من خلال تصويراته أنّ الإنسان قادر على حساب ماضيه ومراجعته، وقادر على بدء حاضره لكنّه عاجز عن معرفة مآلات أموره في المستقبل، وقد أكمل هذا الجزء بموضوع "الدّعوة"[(12)]؛ حيث نادى دعاة الخير إلى تحرّي الصّبر والصّدق في سبيل الدّعوة وتحمّل مشقّاتها لأنّ طبيعة هذا العمل صعبة لكونه العمل على إخراج النّفوس من معتقداتها الّتي تقبل إراقة الدّماء دونها، فساق في هذا المضمار أمثلة للنّاجحين في دعوتهم بعد تحمّلهم مشقّاتها، فذكر النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وابن رشد والغزالي، ثمّ صوّر أعمال الدّعاة في العصور الأخيرة فحكم على أغلبيتها بالبطلان لا فتقادها العنصر المذكور، كما صنّف الدّعاة في هذه العصور الأخيرة إلى أربعة أصناف استعدم بعدها الدّعاة الحقيقيّين في الآونة الأخيرة.

---

(10)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات ، د.ط. دار مصر.1925، 22/1

(11)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، د.ط. دار مصر.1925 ،43/1

(12)- ينظر المصدر السّابق252/1

أمّا الجزء الثّاني فقد بدأه بموضوع "الحياة الذّاتيّة"[13]؛ حيث نادى فيها النّاس –خاصّة الكتّاب منهم- إلى احترام عقولهم واستقلالها من قيود الاتّباع والعمل لما يرضي النّاس وإن كان خاطئًا، فبيّن أنّ كثيرًا من النّاس يعيشون للنّاس لا لأنفسهم ولذلك يتحمّلون ما يضرّهم لإرضاء الآخرين؛ كالّذي يبيع بيته لنفقات المأتم أو العقيقة، والّذي يجمّد عقله وما أودع اللّه فيه من الفطنة والفراسة خشية تبصير النّاس على ما ينكرونه فيكرهونه، أو الّذي يكتب كتاباته لإرضاء اللّغويّين وغيرهم، وقد أكمل هذا الجزء بموضوع "الكلمات"[14]؛ وهي عبارة عن مقالات قصيرة جدًّا تحمل عناوين مختلفة فلم يجمعها عنوان إلاّ هذا، لاختلاف مواضيعها؛ فمنها: "الجرائد"، و" عبد الحميد"، و "الشّهرة"، و"فكاهة" و"الانتقاد"، و "الدّعوى"، و" الدّين والوطن"، وهذه كلّها عناوين لنقد ظواهر اجتماعيّة عاشها الكاتب، ومنها: "الدّين "، و "الحقيقة "، و "الحزم"، و"الألم"، و"الغفران"، و"الحلم"، "والأدب"، و"الأخلاق"، و"الاعتدال"، و "البرّ"... وهي مجموعة من نصائح وحكم مستقاة من تجارب الكاتب.

أمّا الجزء الثّالث والأخير فقد بدأه الكاتب بموضوع "البيان"[15]؛ حيث انتقد بعض الأساليب من كتابات النّاس الّتي يظنّونها مزيّنة لكتاباتهم فتشوّهها وتخرجها للقارئ في أبشع صورة، وتبعدها عن البيان الّذي يظنّون أنّهم وصلوا إليه فيها؛ بتعقيدهم لغتهم وخروجهم عن طريق العرب في شعرهم ونثرهم، وأكمله بموضوع "الأربعون"[16]؛ وهو رثاء على الشّباب ومحاسبة النّفس على ماجنت وفرّطت وأفرطت أيّام الشّباب، وبكاء على الغد المجهول بعد الممات وعلى الأبناء المتروكين عند الفراق؛ وذلك لمّا كبر سنّه وغلبت أسقامه، وازدادت ألقابه فأصبح ينادى –بعد أن كان ينادى باسمه أو الأب من قبل أبنائه –بالجدّ والشّيخ، وكذلك لمّا لاحظ كلّ من في مثل سنّه من أصدقائه وزملائه، أصبحت أحوالهم رثّة وأشعارهم شيبة، فعرف أنّه أيضًا عندهم كذلك .

أمّا مجالات المواضيع المنثورة في ثنايا هذه الأجزاء الثّلاثة فمختلفة؛ فمنها الدّعوة إلى الأخلاق الحميدة من الرّحمة والعفّة والنّشاط والصّدق والوفاء؛ ومن الموضوعات في ذلك:

الكأس الأولى، أين الفضيلة، الغنيّ والفقير، البخيل، البعوض، السّريرة، أدب المناظرة، العظمة، يوم العيد، الآداب العامّة، الضّمير، أيّها المحزون، الجزع، الشّرف، الحسد، الوفاء، خبايا الزّوايا، القمار، الكبرياء .

ومنها ما جاءت علاجًا للقضايا الزّوجيّة، مثل: عبرة الدّهر، غرفة الأحزان، الحبّ والزّواج، الإحسان في الزّواج، الزّوجتان، البائسات، غدر المرأة، الرّجل والمرأة، احترام المرأة .

ومن هذه الموضوعات ما دعت إلى استقلال العقول واحترامها، ومن ذلك: الحياة الذّاتيّة، النّبوغ، العلماء والجهلاء، الانتقاد .

ومنها ما جاءت في نقد قضايا سياسيّة وحلّ مشاكل اجتماعيّة عامّة مثل: مدينة السّعادة، المدنيّة الغربيّة، الاتّحاد، أهناء أم عزاء، السّياسة، اللّقيطة، مدرسة الغرام، قتيلة الجوع.

ومن الموضوعات كذلك ما جاءت نقدًا للكتّاب والأدباء والنّحاة، ومنها: سحر البيان، الرّثاء، الشّعر، دمعة على الأدب، الصّحافة، الأدب الكاذب، اللّفظ والمعنى، النّظّامون، رسالة الغفران، البيان، زيد وعمرو، يوم الحساب، خداع العناوين، الملاعب الهزليّة .

ومن الموضوعات ما تناولت الكلام عن القدر، مثل: الغد، أمس واليوم، الماضي والحاضر.

---

(13)- ينظر المصدر السّابق 5/2

(14)- ينظر المصدر السّابق 253/2

(15)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د.ط. دار مصر.1925 5/3.

(16)- المصدر السّابق 224/3.

ومنها ما جاءت رثاء لبعض الضّعفاء والشّخصيّات، مثل: الدّفين الصّغير، إيفون الصّغيرة، تأبين فولتير، الشّيخ علي يوسف، دورة الفلك، مناجاة القمر، الزّهرة الذّابلة، الخطبة الصّامتة .

ومن موضوعات الكتاب ما جاءت في محاسبة النّفس والتضرّع إلى اللّه، مثل: الأربعون .

ومنها ما كتبت انتصارًا للإسلام ودعوته، ومن تلك الموضوعات: عبرة الهجرة، الإسلام والمسيحيّة، لا همجيّة في الإسلام، الدّعوة، دمعة على الإسلام، الصّندوق، التّوبة، الجامعة الإسلاميّة، البعث، المؤتمر الإسلاميّ .

وقد جاء من هذه الموضوعات ما هو مترجم من اللّغات الغربيّة، مثل: تأبين فولتير لVictor Hugo فيكتور هوجو، الدّعاء لVictor Hugo فيكتور هوجو أيضًا، سحر البيان لShakespeare شكسبير، إيفون الصّغيرة لأحد الشّعراء الفرنسيّين في رثاء لقطية ميتة، الموتى، الانتقام، في أكواخ الفقراء.

المحور الثّالث/ أسلوب المنفلوطي في النّظرات.

لقد بيّن المنفلوطي عن أسلوبه في الكتابة بأنّه يعتمد على أربعة أمور وهي:

1- أنّه لم يكن يعبأ بحديث اللّسان ولا حديث العقل، بقدر اهتمامه بحديث القلب؛ وهذه تصنيفات وضعها الكاتب لأنواع الكتابات؛ فالأوّل: حديث اللّسان: وهو قول السّجّاعين والمنظّمين الّذين لا يودّعون ألفاظهم معاني مفيدة.

والثّاني: حديث العقول: وهو قول المبالغين في الخيال والتّصوير والفلسفة، والنّظم المعقّد، مثل قول أحدهم في ممدوحه:

"ما به قتل أعاديه ولكن # يتّقي إخلاف ما ترجو الذّئاب"[17]

وقصده: أنّ ممدوحه لايملك نيّة قتل أعدائه، إلاّ أنّه يخشى إن لم يفعل أن يكون قد خيّب رجاء الكلاب منه، في الحصول على لحومهم؛ ففي هذا عند المنفلوطي- الشّفيق للإنسانيّة- وصف للممدوح بالوحشيّة الّتي لو فهمها جيّدًا لتحوّل لديه إلى عدوّ له شديد العداوة.

وكقول الآخر في ممدوحه: "لم يتّخذ ولدًا إلاّ مبالغة # في صدق توحيد من لم يتّخذ ولدًا"[18].

والثّالث من أنواع الأحاديث، حسب المنفلوطي، قول القلب، أو حديث القلب: وهو الّذي ينقل إليك المعنى كما هو في قلب قائله نقل الكأس خمرًا إلى المتناول فتصله كاملة وإن تكسّرت دونها الكأس، أو نقل المرآة صورة النّاظر كاملة دون إفساد أصلها، وهو أفضل الأحاديث الثّلاثة، وهو بغية كلّ كاتب –حسب المنفلوطي- لكنّ الواصلين إليه قليلون، وأقبح هذه الأحاديث قول اللّسان ثمّ قول العقول.

2- أنّه لم يكتب حقيقة غير مشوبة بخيال، ولا خيالاً غير مرتكز على حقيقة.

3- أنّه لم يكن يتكلّف في إيجاد موضوع للكتابة، وإنّما يرى فيكتب.

4- أنّه كان يكتب للنّاس لينفعهم لا ليعجبهم؛ ولذلك لم يكن يضرّه ذمّ، ولا يغرّه مدح[19].

وقد ألحّ الكاتب في غير موضع على ضرورة الصّدق في الكتابة؛ فالكاتب السّاعي على المتاجرة بكتاباته بالحرص على إرضاء النّاس وكتابة ما يحبّون، أو إرضاء القواعد اللّغويّة وأهلها ليس عند المنفلوطي إلاّ صانعًا أو مترجمًا لا كاتبًا؛ ولو صحّ أن تكون الصّناعة اللّغويّة أو كثرة المحفوظات معيارًا للبيان لكان علماء اللّغة وجامعوها

(17)- المتنبّي، ديوان المتنبّي، دار بيروت. بيروت، 1983، ص 143.

(18)- الثّعالبي، يتيمة الدّهر، ط2، مطبعة السّعادة، مصر، 1956، ص 278 ، والبيت لأبي الحسن الجوهري.

(19)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات المصدر السّابق،34/1.

وحفّاظ الكتب ونصوصها أتقن الكتّاب وأبرع المعبّرين لكنّ كلّ ذلك لم يكن، بشهادات كثير منهم بأنفسهم على أنفسهم في العجز عن الإفضاء بما يشعرون كما يريدون.

وعند المنفلوطي لا يستحقّ الكاتب القاصر في اللّغة العربيّة وقواعدها أو المتوفّر فيه أي نقصٍ من جوانبها إلاّ أن يوصف بالنّقص في ذلك الجانب لا في الكتابة؛ فلذلك فإنّك لن تجد من شعراء العصر الحديث ولا أساطين كتابته المصلحين، من تسلم كتاباته أو أشعاره من المآخذ اللّغويّة، ولا من يعدّ منهم حافظًا لمفردات اللّغة أو النّصوص، لكنّهم عند المنفلوطي أدخل في باب البيان من غيرهم[20].

ولو أراد المنفلوطي الكذب في الكتابة والتّصنّع فيها لما صعب عليه طريقه؛ إذ بيّن من خلال نقده لتلك الظّاهرة مسلك السّالكين إليه من خاصّهم أو عامّهم؛ فالخاصّة لا ينتظرون من الكاتب إلاّ ثلاثة ليرفعوه بها؛ وهي: السّخرية بالأديان، واحتقار تاريخ المشرق، والقول بتبرّج المرأة، أمّا عامّتهم فكان يكفيه أن يمتلك قلوبهم بثلاثة أخرى وهي: سبّ الكفّار، وعبادة الأضرحة، والجمود على كلّ قديم[21].

وقد صوّر المنفلوطي الفرق بين الكاتب واللّغوي بما يظهر قيمة الكتابة على الولع بمفردات اللّغة وأحكامها؛ إذ إنّ اللّغويّ والكاتب عنده ليسا إلاّ كالنّاسج للثّوب وخادمه؛ هذا ينسج الثّوب وهذا يلتقط له زوائده ويمسح زِئبره، أو الشّاعر والعروضيّ؛ هذا ينظّم الشّعر وهذا يعرضه على تفاعيله، على أنّ الكتابة عنده أحفظ للّغة وأذيع لها وأخلد بها من اللّغة بنفسها، وكذلك الفضل بين الكاتب واللّغويّ في حفظها؛ إذ إنّ الكتّاب والشّعراء ينظّمون اللّغة ويظهرونها في أحسن صورها والأعلق بقلوب رائيها، كما يقرّبونها لهم بطريقة تُسعفهم عن اللّجوء إلى معاجم اللّغة وقواميسها، والألفاظ عند المنفلوطي ليست إلاّ خَدَمة للمعاني أو أثوابًا وظروفًا لها، فلا تستحقّ العناية بها أكثر من حقّها، لأنّ جوهر الكلام ولبّه المعاني لا الألفاظ[22].

وهكذا وحسب ما سبق يلاحظ أنّ المنفلوطي يعيد التّرسّم على آثار عبد القاهر الجرجاني في المعركة ضدّ أنصار اللّفظ والزّخارف، و الاحتجاج للمعاني وبيان حدود الألفاظ، كما تجده ضدّ التّعمّل بالكتابة، لأنّ وظيفة الكاتب عنده الإصلاح رضي به النّاس أو سخطوا، فلا يصحّ له طريق الغموض والأكاذيب في ذلك.

وكما تقرّر لدى أصحاب المدرسة الواقعيّة الاجتماعيّة في الأدب ونظريّتها الحتميّة التّاريخيّة[23] والّتي من ضمن لوازمها أن يعود كلّ شيء إلى الحقيقة مهما طال به الزّمان، وأن يُنسى عمل عامل لم يخلص فيه لمجتمعه مع مرور الأيّام، كذلك يقرّر المنفلوطي في مقدّمته بأنّ كلّ كاتب لم يصدق في كتابته ستفضحه الأيّام فيما بعد ويكتشفه النّاس ثمّ ينسونه، يقول الكاتب: "على أنّ خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه لهذه الدّنيا صفحة يقرأ فيها النّاظرون في تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوي رحمه صورة نفسه، ومضطرب آماله، ومسرح أحلامه. وإذا كان كلّ شأنه في حياته أن يكون مرآة تتقلّب فيها مختلفات الصّور، أو وفيعة تتمسّح بها أعواد الأقلام؛ كان خسرانه عظيمًا... والتّاريخ أضنّ من أن يحفظ بين دفّتيه من مجد الأدباء إلاّ مجد أولئك الّذين يودّعون نفوسهم

(20)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د.ط. دار مصر.1925 30/1.

(21)- ينظر المصدر السّابق 27/1.

(22)- ينظر، المصدر السّابق31/1.

(23)- "الحتميّة التّاريخيّة" من مقولات أصحاب الفلسفة الماركسيّة، في الأدب والّتي تعني أنّ التّاريخ البشري لابدّ أن تمرّ بمراحل تنتهي إلى ما يرمون إليه في مذهبهم من التّوازن الاجتماعيّ ونبذ الطّبقات، على أنّ الأدب في ذلك معتمد على الواقع المادّي الملموس، قد يبدأ بطريقة فطريّة انطباعيّة عشوائيّة، تخضع للنّظام الرّأسمالي، ولابدّ أن يصبّ في نهاية الأمر في المستقبل الاشتراكيّ، وكلّ حركة لا تتّجه هذا الاتّجاه فهي مضادّة لحركة التّاريخ وفاقدة لمصداقيتها.

صفحات كتبهم، ثمّ يموتون وقد تركوها نقيّة من بعدهم... وحياة كاتب بحياة كتابته... ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم النّاس من أمره- بعد قليل- أنّه يكذبهم عن نفسه وعن أنفسهم... إلخ"[24].

وعندما نشير إلى أسلوب الكاتب فإنّ لجانب التّصوير والخيال من الأهمّيّة فيه ما لا يغفل عنه؛ فالمنفلوطي ذهب في تصويره أبعد مذهب؛ حيث اختار لأكثر قصصه أسلوب "الرّؤية من خلف vision par derriere "، [25]"؛ وفي بعضها "الرّؤية مع vision avec "، فلم يفته فيها أدقّ حدث بها، وهو في جلّ هذه القصص يمثّل بطلاً يلعب أدورًا إيجابيّة، ما دعا بعض النّقاد إلى اعتباره نرجسيًّا في قصصه كالحنا الفاخوري في كتابه "الجامع في تاريخ الأدب"، فلقارئ المنفلوطي أن يلاحظ عليه مثل: "مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعًا يده على بطنه كأنّما يشكو ألما فرثيت لحاله وسألته ما باله فشكا إليّ الجوع ففثأته عنه... الآن نفضت يديّ من تراب قبرك يا بنيّ... رأيت فيما يرى النّائم أنّني أمشي... مسكين ذلك الفتى الّذي رأيته صباح أمس منزويًا في ركن من أركان أحد الأندية... غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها... يا صاحب النّظرات تزوّجتُ منذ سنة من زوجة صالحة... استيقظت في فجر هذا اليوم على صوت هرّة... ساهرت الكوكب ليلة أمس حتّى ملّني ومللته... سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من بخله حتّى على نفسه... إلخ.

ويؤكّد هذه المعاني أيضًا، تمثّل الكاتب دور الحاكم الّذي ينقل إليه الأحداث ليوجد حلّها؛ فمن ذلك رسالة السّجين إليه – في موضوع "الصّدق والكذب"[26]- يطلب نظرته في قضيّة الصّدق والكذب، لمّا لاقى الويلات الكثيرة في سبيل الصّدق من مختلف مجالات الحياة- في القضاء ومجالس الدّين، والزّواج، والتّجارة، والكتابة والشّعر- والّتي آخرها السّجن الّذي مازال فيه، حتّى يكاد يكذّب أن يكون الصّدق فضيلة من الفضائل، وحتّى يكاد يصنّفه رذيلة من الرّذائل، ومن ذلك أيضًا كتابة جماعة من متجالسي ناد واحدٍ رسالة إليه مجمعين فيها على التماس رأيه في قضيّة اختلفوا فيها ولم يجدوا حلّها، وهي قضيّة زواج أحد أصدقائهم بامرأة بغيّة ساقطة بين مؤيّد لفعله ومنكر له، وذلك في موضوع "الإحسان في الزّواج"[27]، كما أنّ منها "موضوع الجزع"[28]، الّذي يتناول قضيّة جزع الطّلاّب عند سقوطهم من امتحان شهادة الباكالوريا، فإنّ في افتتاحه رسالة قصيرة يأتي الكلام بعدها إجابة عليها، وفحواها: أنّ شخصًا طلب تسلية زميل له فشل في الامتحان فجزع ولا يعرف ما يقوله لأبيه، وكيف يعاشر إخوانه وأهله ومعارفه.

وكثيرًا ما تجد في افتتاح تلك القصص عبارات مثل: "حضرة السّيد الفاضل"- كما في موضوع الصّندوق، وموضوع الإحسان في الزّواج، وموضوع الكبرياء- أو "سيّدي المنشئ الفاضل"- كما في موضوع التّماثيل- أو "حضرة السّيّد المحترم"- كما في موضوع الرّجل والمرأة- أو "يا صاحب النّظرات"- كما في موضوع الصّدق والكذب، وموضوع

---

(24)- مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د. ط. دار مصر.1925 المصدر السّابق 28/51/3.

(25)- مصطلح "الرّؤيةvision " في علم السّرد، عبارة عن وجهات النّظر الّتي يتمّ وفقًا لها عرض الوقائع والمواقف، في الرّوايات والقصص، ولها ثلاثة مجموعات رئيسيّة وهي، الأولى منها تسمّى: "الرّؤية من الخلف vision par derriere"، والّتي تعني أن يتحدّث السّارد فيها عن أشياء أكثر ممّا يعرفها أي واحد من شخصيّات القصّة أو الرّواية، أي أن يحيط بكلّ دقائق الأحداث كأنّه إله يطّلع على كلّ شيء، لذلك سمّاه البعض بالرّؤية الإلهيّة.

والثّانية: هي "الرّؤية مع vision avec "، وتعني أن يحكي السّارد القصّة أو الرّواية كما يعرفها أي واحد من شخصيّاتها، كأنّه واحد منهم يعرف بعض الأشياء ويجهل بعضها. والثّالثة والأخيرة هي "الرّؤية من الخارج vision du dehors "، وفيها يحكي السّارد بعض المواقف والوقائع الّتي يعرفها واحد أو أكثر من باقي الشخصيّات. ينظر جيرالد برنس، المصطلح السّردي، ط1، القاهرة، المشروع القومي للتّرجمة 2003، ص 245.

(26)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د. ط. دار مصر.1925 ، 100/1.

(27)- ينظر المصدر السّابق 182/1.

(28)- ينظر المصدر السّابق 199/1.

الجزع، وموضوع الوفاء، وموضوع الصّحافة- أو "سألني سائل"،- كما في موضوع البخيل- أو "سألني بعض الأصدقاء عن رأيي.. "- كما في موضوع الانتقاد- أو "كتب إليّ كاتب"- كما في موضوع دمعة على الإسلام، وموضوع الشّعر- ، أو "جاءني الكتاب الآتي من حضرة الكاتب الفاضل محرّر جريدة ثمرات الفنون ببيروت"- كما في التّماثيل- ، أو "ورد إليّ من صاحب التّوقيع الكتاب الآتي"- كما في الزّهرة الذّابلة... إلخ. ثمّ يورد القضيّة الّتي نقلت إليه لطلب الحلّ أو الإفتاء فيها، فتجد من ضمن عباراتها: " لي صديق سقط في امتحان الباكالوريا... "، "لي في البلدة الّتي أسكن فيها كرامة الحاكم لأنّي أشغل وظيفة عالية فيها"، "أنا عامل من العمّال في دائرة من دوائر الحكومة أنال منها في كلّ شهر عشرةً ذهبًا... "، "أنا تلميذ في السّابعة عشرة من عمري حصلت على شهادة الدّراسة الابتدائيّة"، "تزوّجتُ منذ سنة من زوجة صالحة طيّبة القلب والسّريرة... "، "أفتنا أيّها السّيّد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الدّينيّ في هذه المسألة الّتي أصبحت الشّغل الشّاغل لكثير من النّاس"، "فاكتب لنا في السّياسة فأمّتك تحبّ أن تراك سياسيًّا"، "أشِرْ علينا برأيك، فقد أصبحتُ أعتقد أنّك أعقل الكتّاب وأكثرهم إخلاصًا، والسّلام"، "فهل لك أيّها السّيّد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك الّتي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟"، "فهل تعرف مسوّغًا شرعيًّا يفرّق بين درجات النّاس في مواقف الصّلوات؟"، "فاتّفق رأينا جميعًا على أن نكتب إليك بذلك علّك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصّادقة والسّلام"، "أحيّيك بتحيّة الإسلام وأبثّك الشّكر والثّناء على... "... إلخ.

لتأتي من كلمات ردّه مثل: "أيّها السّائل الكريم"، "ليست المسألة مسألة صديقك وحده بل مسألة السّاقطين أجمعين"، "أيّها الكاتب، يعلم اللّه أنّي أبغض السّياسة وأهلها بغضي للكذب والغشّ والخيانة والغدر"، أيّها السّائل أراك تسألني عن القسمة الشّرعيّة في هذا المال"، "أيّها الإنسان، لا تفعل... "، "أيّها الرّجل لا تفعل... "، يا مولانا الحاكم رحماك بهذا الصّعلوك المفلوك... "،"حضرة الكاتب الفاضل، قرأت كتابك... "، "لا أستطيع أن أعزّيك عن مصابك يا بنيّ"... إلخ.

وكذلك تمثّله أحسن صديق في تفقّد أحوال أصدقائه أو نصحهم، وإظهار صورة من يخالفه منهم في النّصائح في الخسارة الفادحة والوباء الشّديد؛ كصديقه الّذي تعلّم شرب الخمر فمات عليها ميتة مستقذرة، وصديق صديقه الّذي كان يحبّه ويحبّه ثمّ مكث ولم يجد خبره إلاّ بعد أن أساء إلى زوجته فأدّى بهما الأمر إلى الطّلاق بعد أن غصب منها أموالها وسلب شرفها وترك معها الأولاد فتزوّج بها الصّديق وأحسن إليها؛ ليظهر لديهم عاقبة ذلك المسيء مع زوجته الّتي كان يحلم لها ويرنو إلى صفاتها المتمثّلة في: كثرة الثّقافة، والقدرة على قراءة المجلاّت والصّحف له، عاقبة شقاء ووبال. وصديقه الّذي مات ملتحفًا بزوجته الّتي غدرها بعد أن وعدها بالزّواج فمُكّن منها فسلب حرّيتها ثمّ ابتعد عنها فلاقت الويلات من سقوطها لدى قومها وآثرت في الأخير الذّهاب مع ابنتها إلى دار مهجورة يختفي فيها عن أنظار النّاس، من بيت غنيّ وأهل شرفاء لتلقى منيّتها فيها بعيدة عن كلّ العالم إلاّ ابنتها فكتبت وصيّة إلى ذلك المجرم لا لإعادة عهد معه وإنّما لطب البكاء على ابنتها إن بقي في قلبه مثقال ذرّة من رحمة، فاستعجل إليها فإذا هي جثّة هامدة، فعاهد اللّه أن لا يخرج من تلك الغرفة حتّى يذوق من كأسها، فمات هو بعدها عن ابنته الّتي يقوم بتربيتها بعدهما صديقه الّذي كان ملهوفًا في التّحسّس عن أخباره حتّى وجده في تلك الغرفة وعلى تلك الحال.

كما يمكن ملاحظة أسلوب تطويل الخطاب الّذي يعدّ من أسباب تكرير بعض الكلمات في الكلام عند البلاغيّين والّذي يسمّونه الإطناب، إلاّ أنّه لم يذهب مذهب إعادة الذّكر أو التّكرير مثل ذهابه إلى سرد المترادفات والأوصاف الخاصّة بالظّاهرة المصوّرة، بأسباب قد تكون لزيادة البيان أو مراعاة توازن الفقرات.

وإذا وقفت بلطف تحصي أدوات التّصوير والتّشبيه والتّجسيد في النّظرات؛ فقد تجدها تتكرّر في أكثر من موضوع وتتنوّع وتُصاغ بأساليب مختلفة كالإكثار من استخدام الأضداد؛ من السّماء والأرض، واللّيل والنّهار، والبرودة والقيظ، وكوصف الرّوضات والبساتين وأزهارها وأطيارها، وأشجارها، وجداول مياهها... إلخ.

وكثيرًا ما يشبّه المنفلوطي اللّيل بالبحر وظلامه وأوقاته بالأمواج، فإذا جعل أحداث القصّة تدور ليلاً جعل شخصيّاته سابحين في بحره فتقلّبهم الأمواج موجًا بعد موجٍ حتّى يقذف بهم في شاطئ البحر الّذي هو الصّباح.

كما أنّه يشبّه عمر الإنسان بالسّفر، فطويله سفر طويل وقصيره سفر قصير، كما يشبّه النّاس في السّنة بالرّكب السّائر، فإذا حلّ بهم عام جديد فقد نزلوا بمنزلة من منازل الحياة ليستريحوا.

ويتميّز المنفلوطي في الوصف بأنّه لا يصف شيئًا بغير ما يناسبه، ويتعمّد من أجل ذلك إلى التّفصيل في بعض النّعوت ومنعوتاتها، وغالبًا ما يجعل العلاقة بين الصّفة والموصوف علاقة إضافيّة كأنّما يقصد الإضافة وهو قصده الوصف، وإن كان يحمل ذلك الأسلوب في ذاته جمالاً خاصًّا، لا تقتصر فائدته عند الوصف فقط أو الإضافة، ومن ذلك قوله: "كلّ ما كان من أمري أنّني كنت امرأ أحبّ الجمال وأفتتن به كلّما رأيته في صورة الإنسان، أو مطلع البدر، أو مغرب الشّمس، أو هجعة اللّيل، أو يقظة الفجر، أو قمم الجبال، أو سفوح التّلال، أو شواطئ الأنهار، أو أمواج البحار، أو نغمة الغناء، أو رنّة الحداء، أو مجتمع الأطيار، أو منتثر الأزهار، أو رقّة الحسّ، أو عذوبة النّفس، أو بيت الشّعر أو قطعة النّثر"[29]؛ فهذه الإضافات كلّها تعمل على خلق الصّورة الّتي تظهر فيها جمال كلّ موصوف، لا غير.

ومن ذلك أيضًا قوله: "فقد كنت أرى النّاس فرأيت نفوسهم، وأرى الجمال فرأيت لبّه وجوهره، وأرى الخير فرأيت حسنه، وأرى الشّرّ فرأيت قبحه... ".

وفي الخيال يلاحظ أنّ المنفلوطي يرتقي إلى أعلى مستوى التّحلّق والتّصوير مع أنّه يعتمد غالبًا فيه على الحقيقة، ويتجلّى ذلك أكثر عندما تراه يخرق فيه إلى عالم الجمادات فيستنطقها، وعالم الرّوفات فيستحييها ويستعيدها إلى الحياة، بل وأجلى من ذلك كلّه أن تراه يصل أحيانًا إلى تجسيد موقف القيامة ليروي فيها أحداثها ويصوّر نيرانها وجنّاتها، ويصنّف أعمال أصحاب كلّ دار وما يُسْألون عنها قبل دخولها؛ كما في "رسالة الغفران"[30]، ورواية أبي العلاء المعرّي في موضوع "البعث".[31]

ومن القيم الّتي يمكن ملاحظتها في كتاب النّظرات أنّ المنفلوطي يؤسّس فيه للإنسان القارئ مبدأ القناعة والاستفادة من المواهب والقدرات الخاصّة؛ فهو مع أنّ الله تعالى لم يكتب له أن يكون من السّعداء وأصحاب الثّراء والجاه، استطاع أن يصل إلى قمّة السّعادة والبهجة في الحياة، باستعماله حاسّته الأدبيّة الّتي تمكّنه أن يرى من الأشياء جمالاً لايصل إليه كثير من النّاس، فأصبح بذلك في غبطة وسرور لا يجاريه فيه غنيّ ولا ذو جاه[32].

ومن الحكم الّتي تستفاد من الكاتب كذلك أنّه يؤكّد لكلّ قارئ أنّه يستفيد كثيرًا في القراءة وإن لم يكن له ذاكرة قويّة لحفظ ما يقرأه؛ فقد بيّن في مقدّمته أنّه لم يساعده شيء في إتقان الكتابة مثل ضعف ذاكرته وعجزه عن أن تمسك المقروءات وتحفظها إلاّ قليلاً منها، لكنّه مع ذلك يستفيد بمروره عليها؛ حيث تبقى آثارها وصورها في ذهنه فيتمثّلها ويعيد إنتاجها بأسلوبه الخاصّ.

ويلاحظ أنّ المنفلوطي أعطى عناية كبيرة وتقديرًا واسعًا للنّفس الإنساني؛ فإنّ من الاعتقادات الرّاسخة لديه أنّ للنّفس الإنسانيّ طبيعة أصليّة صافية لا تقبل الرّذائل ولا تألف الفساد والقسوات، لذلك وجّه جلّ خطاباته في كلّ المواقف الإصلاحيّة إلى نفوس أولئك الظّلمة والقساة ممّن يخذلون النّساء أو يخدعونهنّ ومن يظلمون الأيتام، ويذلّون الشّعوب، ويسبّبون الفقر والمسكنة والفساد، يخاطب كلّهم بما في نفوسهم من آثار الإنسانيّة والطّاقات

(29)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات،، د. ط. دار مصر.1925 6/1.

(30)- ينظر المصدر السّابق، 81/1.

(31)- ينظر المصدر السّابق 198/1.

(32)- ينظر المصدر السّابق 1/ 9.

الخيريّة الأصيلة والّتي لا يرى الكاتب سبيلهم إلى هذه الأفعال، إلاّ إذا عادَوا أنفسهم بأنفسهم، وهذه المعاني تجد كلّها في مختلف المواضيع المنتشرة في ثنايا الكتاب.

ويلاحظ أيضًا تعمّد المنفلوطي إلى اختيار الجنس الأنثوي غالبًا للتّعبير عن الصّور المأساويّة في القصص كاختياره أبناء النّساء السّاقطات المضطرّات غالبًا إلى مهاجرة النّاس إلى دور بالية يقاسين الحياة وحدهنّ مع بناتهنّ؛ كقصّة "غرفة الأحزان"، وقصّة "التّوبة"، وقصّة "الزّوجان"، كما يعمد إلى اختيارهنّ في التّمثيل على المظلومات كقصّة "اللّقيطة" وقصّة "البائسات" في نقد الزّواج الإجباريّ والمبكّر، وقصّة الشّهيدتين اللّتين ماتا إثر ظلم ذلك الرّجل المِذواق المطلاق في موضوع "الشّهيدتان"؛ لمّا نآ عن زوجته وابنته إلى زوجة أخرى يتمتّع عندها من دون أن يرسل لهاتين ولو سحتوتًا، حتّى اقتربت المرأة من الهلاك لشدّة معاناتها وفقرها، فأتى إليها وأخذ ابنتها، ثمّ أخذ يستعبد هذه الابنة عنده حتّى استحالت هي أيضًا خرقة ممزّقة، فرجع بها إليها بعد شدّة بكائها، فإذا هما تلتقيان على ميعاد الرّدى، فودّعا الحياة وسلّما لله.

وكثيرًا ما يستخدم المنفلوطي خلفيته التّاريخيّة في ثنايا القصص والأوصاف ويطوّل بها في تفصيل أحداثها، ويكثر من إيراد الأمثلة بهذه العناصر التّاريخيّة بأساليب مناسبة لسياقات القصص لا مملّة ولا مشوّهة للأفكار؛ بل قد تثري كثيرًا في الإقناع بالأفكار وإيضاحها للغموض؛ تعكس عن مدى غزارة الثّقافة التّاريخيّة لدى الكاتب، وقدرته العجيبة على استحضارها في كلّ موضع دعت الحاجة إليها؛ كوصفه الحياة الجاهليّة وخيامها، وأخبيتها، وأطنابها، وأعوادها، وإبلها وشاءها، وشيحها، وقيصومها، ومساجلاتها ومنافراتها، وحبّها وغرامها، وعفّتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحداءها وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها وفقرها وإقلالها، وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوى أجسامها، وقيظها وبردها، وتنقّلها من صحراء إلى ريف، ومن مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهدٍ، ومن شرف إلى غور... إلخ، ثمّ بيانه عقب ذلك انتقال العرب من الجاهليّة إلى الإسلام وتصويره لحالهم في ذلك كما صوّر في الأوّل، فأبرز حدود التّقاطع والتخالف للمرحلتين[33]، وكإيراده ستّة وعشرين نموذجًا من النّماذج الأدبيّة الّتي يعجب بها على مرّ التّاريخ مع مختصر قصصها، وقريبًا من ذلك من النّماذج الّتي رغّب عنها قبل هذه النّماذج[34]، وكما في موضوع "الغناء العربي"؛ حيث قدّم تاريخ الغناء العربي وعلاقته مع الشّعر ودعا إلى إعادة هذه العلاقة كما كانت سابقًا، وبيّن أنّ الشّعر نشأ عند العرب ونشأ الغناء عند الفرس، فأخذ العرب من الفرس الغناء فكان ذلك مرحلة تطوّر للشّعر، ثمّ ذكر كثرة طرب الخلفاء بالغناء وإغداقهم على المغنّين بالأموال الطّائلة حتّى جعلوا بعضهم من أغنياء القوم بغنائهم فقط، مثل "ابن عائشة" في عهد "عبد الملك بن مروان"، وأعقب ذلك ببيان أنّه ومع كثرة الطّرب الّذي عُرف مع الخلفاء في الغناء، فإنّ نجم الغناء أخذ ينحدر شيئًا فشيئًا حتّى أفل مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي وأكّد أنّه لو استمرّ كما كان سابقًا، لكان أحسن غاية من الثّقافة العربيّة، ولما استطاع الغرب مناوأتهم فيه، كما ذكر خلالها قصصًا طريفة تصوّر مدى قيمة الغناء العربي في العصر الأموي لدى كثير من العرب[35]، ومن ذلك أيضًا تناوله دراسة أدوار الشّعر العربي عبر التّاريخ بدءًا بالعصر الجاهلي إلى العصر الحديث في موضوع (أدوار الشّعر العربيّ)؛ حيث بيّن أنّ العرب عاشت في الجاهليّة حياة طبيعيّة فكان شعرهم طبعيًّا كذلك، لا تكلّف فيه ولافتراء، ومرآة صافية يعكس فيها جميع وقائعهم التّاريخيّة، فحقّ بذلك قولهم: الشّعر ديوان العرب، ثمّ بيّن أنّ الآثار الرّومانيّة والفينيقيّة ليست أدلّ على سابقهم من دلالة الشّعر على سابق العرب، فما سلمت آثار قوم

(33)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د.ط. دار مصر.1925 ، 8/1.

(34)- ينظر المصدر السّابق 1/ 15- 20.

(35)- ينظر المصدر السّابق 2/ 40.

من عبث العابثين عبر التّاريخ مثل سلامة الشّعر العربي الّذي هو ديوان كلّ العرب، وبيّن أنّ الشّعر العربي بقي على هذه الحال حتّى طلعت شمس الحضارة الإسلاميّة فانطلق معها، وحتّى إذا أتى عصر المولّدين بقيادة "بشّار بن برد" و"أبي نوس"، طرقوا معاني جديدة لم تكن معروفة، فحُمدوا على ذلك الإثراء لأنّه زيادة لا نقصان، فجاء بعدهم "أبو تمّام" بزخارفه البديعيّة وصنعته اللّفظيّة فثغر لمن بعده ثغرة ظلّوا في توسيعها حتّى لم يتركوا لها سدًّا من ورائها أو أمامها؛ فأعقبهم كلّ من "ابن حجّة" و"ابن الفارض" و"ابن المليك" و "الصّفدي"، و "السّراج" و"الجزار" و "الحلّي" وأمثالهم بجعل الشّعر آنية صينيّة فارغة لا تسمن ولا تغني من جوع، وتبعهم مَن بعدهم حتّى أصبح الشّعر لاشِعر، فلمّا جاء العصر الحديث استحيى أساطين نهضته عصر بشّار، وأبي نواس وأبي تمام، وأحسنوا في القول إلاّ أنّهم متقنون في التّقليد، وأولئك متقنون في الإبداع.[36]

وكما يدخل في ذلك ما في موضوع "الدّعوة" من ذكره للنّماذج المثاليّة في الدّعوة النّاجحة كدعوة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما كان يلقّب في بدايتها به من قبل الكفّار وما وصل إليه في النّهاية، وكدعوة الإمام الغزالي وما كان يُتّهم بالإلحاد والكفر ثمّ مات حجّة الإسلام، ودعوة ابن رشد وعيشه ذليلاً مهانًا وكان النّاس يبصقون عليه كلّما رأوه، ثمّ أصبح فيلسوف الشّرف.[37]

وكما في موضوع "العظمة"؛ حيث ساق عددًا كبيرًا من نماذج العظماء الّذين وجدهم على ميزان العظمة الّتي يدعو إليها؛ فذكر أنّ أناسًا أحبّوا عليًّا حتّى كفروا بحبّه، وأبغضه آخرون حتّى كفروا ببغضه، وأنّ أبابكر وعمر، وصفهما قوم بشيخي المسلمين ولم يعدّهما البعض من أصحاب الرّسول، وعاش ابن العربي قطب الأولياء وشيخ الملحدين، ولثم قوم بنعال المعرّي، وجرّه آخرون على وجهه مذلّين، وكذلك ما كان بين أحباب ابن رشد وأعدائه، وSocrates سقراط، والمتنبّي، وNapoleon نابليون الأوّل، وCalvin كالفين، وGalileoغاليلو، وvoltaire فولتير، و Nietzsche نيتشه، وTolstoy تولستوي... إلخ.[38]

المحور الرّابع/ النّتائج:

يتوصّل الباحثان من خلال ما سبق إلى ما يلي:

1- الصّدق والحقيقة، مبتغى المنفلوطي في إصلاحاته؛ فلذلك كان حُسن الأعمال الأدبيّة وقبحها لديه بقدر مدى علاقتها بصاحبها ومدى صدورها من العاطفة الصّادقة لديه.

2- قد يأخذ المنفلوطي الطّريق الخيالي إلى الحقيقة الّتي ينشدها لا باعتبارها غاية وإنّما باعتبارها معينة للوصول إلى الغاية المنشودة؛ وهي الحقيقة.

3- الكاتب مصطفى لطفي المنفلوطي، دقيق في الوصف مسحب في تفصيل أجزائه، مستخدم في أكثره التّكنيات السّرديّة المعبّرة عن إحاطته الكاملة لجميع دقائق الموصوف، كا" الرّؤية من خلف" أو الرّؤية الإلهيّة، و "الرّؤية مع".

4- يستعين المنفلوطي إلى جانب العناصر السّابقة من أسلوبه، بغزارة مادّته اللّغويّة، وخلفيّته التّاريخيّة، وملكته على خلق القصص الخياليّة.

---

(36)- ينظر مصطفى لطفي المنفلوطي، النّظرات، د.ط. دار مصر.1925 2/ 129.

(37)- ينظر المصدر السّابق 252/1.

(38)- ينظرالمصدر السّابق ، 1925، 3/ 48.

5- يميل المنفلوطي في نظرته إلى المجتمع- غالبًا- إلى التّشاؤم وقطع الرّجاء، ويسلك الطّريق إلى إبراز صورة هذا السّواد الاجتماعي، ونيرانه المستعرة باستخدام قصص ضعفاء البشر ومظلوميهم، كاللّقطيات، والفتيات السّاقطات، والأيتام، والأرامل.

6- مع تشاؤميّة المنفلوطي الملاحظة له، فإنّه يؤكّد في غير موضع من كتابه بخيريّة النّفس الإنسانيّة في الأصل؛ حيث ترسّخ عنده أنّه لا يجرؤ للإقدام على الرّذائل الّتي ينهى عنها، إلاّ من لم يُصغِ لضمير والخير الّذي يأمره به، فيكون بذلك قد عادى نفسه بنفسه قبل الآخرين.

المحور الخامس/ المناقشة:

ممّا سبق ندرك أهمّيّة أسلوب المنفلوطي في الكتابة الأدبيّة العربيّة، وأهمّيّة الاستفادة منه، لما يتميّز به من كثرة أساليب الوصف فيه- إذ إنّ الوصف من أقدر أدوات المتكلّم في التّعبير عن كلّ ما يختلج في قلبه- وما فيه من توظيف مفردات اللّغة في الأوصاف الدّقيقة؛ لأنّ أحسن طريق لإظهار قيمة اللّغة والاستفادة بها هو أن تنظّم في السّياقات المناسبة لها، كما يظهر أهمّية أسلوب المنفلوطي فيما يحتوي عليه من غزارة علميّة لما يتّصل بالتّاريخ العربي والأدبي والإسلامي، وما يتميّز به من السّليقيّة والسّلاسة والطّبعيّة، إلى جانب ما تزخر بها قصصه ومقالاته من الأخلاق والقيم، والّتي قد يظمأ أي كاتب أدبي إصلاحيّ إلى طريقة تخليلها لأسلوب خطابه.

الخلاصة:

وبعد هذه الجولة اليسيرة حول كتاب المنفلوطي وأسلوبه يتوصّل الباحث إلى أنّ المنفلوطي كاتب اجتماعي إصلاحيّ، يرتكز على الحقيقة ويستعين بالخيال ويتميّز في التّصوير بأنّه دقيق اختيار النّعوت لمنعوتاتها، مسحب التّفصيل لأجزاء الوصف، مستعينًا خلال ذلك بالتّكنيات السّرديّة المعبّرة عن إحاطته الكاملة لدقائق الأحداث كـ"الرّؤية من خلف، أو الرّؤية الإلهيّة vision par derriere "، و "الرّؤية مع vision avec "، ومعتمدًا في التّأثير على اختيار الجنس الأنثوي في التّعبير عن القصص المأساويّة، مائلاً في ذلك إلى التّشاؤميّة والنّظرة الاستنكاريّة تجاه الوقائع الاجتماعيّة المؤلمة، ومستخدمًا خلال مختلف القصص خلفيّته التّاريخيّة الواسعة، مؤسّسًا للقارئ مبدأ القناعة واحترام الذّات، ومخاطبًا في جلّ خطاباته الإصلاحيّة نفوس المعنيّين من البشر، إيمانًا منه بأنّ لها طبائع أصليّة مجبولة بالخير لا يتعدّاها المرء إلاّ عندما يعلن الحرب على نفسه بنفسه.

المصادر والمراجع:

- أحمد أمين. النّقد الأدبي. مؤسّسة الهنداوي. القاهرة.2012.
- الثّعالبي. أبو منصور الثّعالبي. يتيمة الدّهر. ط2. مطبعة السّعادة. مصر. 1956
- جيرالد برنس. المصطلح السّردي. ترجمة عابد خزندار مراجعة وتقديم محمّد بريري. ط1. المشروع القومي للتّرجمة القاهرة. 2003
- رزق. سميرة عدلي محمّد. الاتّجاه الإنساني في أدب المنفلوطي. بحث ماجيستير، جامعة أمّ القرى عام 1983.
- الزّيّات. أحمد حسن الزّيّات. تاريخ الأدب العربي.ط2. دار النّهضة. القاهرة. د.ت.
- شكيب أرسلان. مناهل الأدب العربي. ط1. الدّار التّقدّميّة. لبنان. 2008
- الشّنوفي. رضوان ظاظا. منصف الشّنوفي. مدخل إلى مناهج النّقد الأدبي. ط221.المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب. الكويت.1997.
- صلاح حسن. المنفلوطي إمام النّثر على يده تطوّر الأدب العربيّ. جريدة الحياة. 27 أكتوبرن 2014.

- صلاح فضل. مناهج النّقد المعاصر. ط1.ميريت. القاهرة.2002.
- طه حسين. التّقليد والتّجديد. د.ط . مؤسّسة الهنداوي. القاهرة.2017.
- العبهري، ميسون محمود فخري. النّقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعرّي. ط1.رسالة ماجستير. جامعة النّجاح الوطنيّة. كلّيّة الدّراسات العليا.2005.
- العقّاد والمازني. عبّاس محمود العقّاد. إبراهيم المازني. الدّيوان في الأدب والنّقد. ط4. دار الشّعب. القاهرة. 1996.
- الفاخوري. حنا الفاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي.ط1.دار الجيل. بيروت.1986.
- قاسم أمين. تحرير المرأة. د. ط. مؤسّسة الهنداوي.القاهرة.2012.
- المتنبّي أبو الطّيّب. ديوان المتنبّي. دار بيروت. بيروت. 1983
- محمّد بن حسن. الهمّة طريق إلى القمّة. ط3. دار الأندلس الخضراء. جدّة. 1995.
- مدوّنة مسعود عمشوش. أسلوب المنفلوطي في النّظرات. 25فبراير- 2012 .
- المنفلوطي. مصطفى لطفي المنفلوطي. مختارات المنفلوطي. د. ط. بيروت. دارالجيل.1984.
- المنفلوطي. مصطفى لطفي. الحجاب، ط1.دارالهداية.بيروت. 1991.
- المنفلوطي. مصطفى لطفي. العبرات. د. ط . دار الهدى الوطنيّة. بيروت. د.ت.
- المنفلوطي. مصطفى لطفي. النّظرات. د. ط. دار مصر.1925.
- هلال. محمّد غنيمي هلال. النّقد الأدبي الحديث. ط6. شركة نهضة مصر. القاهرة. 2005.

Manfalouti's Style in his book 'Al- Nazarat'

Abstract: Mustafa Lutfi Manfalouti, a social reform writer, has many articles and books. One of the writer's famous books is 'Al- nazarat' in which he dealt with various topics in the criticism of several aspects of life. In this book, the author focused on reality, imagination, and illustrations because he is critical in the choice of adjectives and their nouns. Thus, the author provides detailed descriptions and uses narrative techniques that express his full coverage of events such as al- ru'yah min khalf, al- ru'yah al- Ilahiyyah, and al- ru'yah ma'. The author relies on the choice of feminine gender for expressions in tragic stories, focusing on pessimism and criticism towards painful social realities, using various stories on his extensive historical background, and establishing the reader's principle of contentment and self- respect. The author also addresses the people concerned in most of his reformist speeches, believing that they have original and good qualities. This study describes Manfalouti's style as observed by the researcher through reading the various stories in the author's books and articles. The themes are briefly described and categorized according to the appropriate contexts.

Keywords: Manfalouti, al- nazariyat, articles, style, description, reality, imagination.